"طبيعة فرنسا"

من كتابTableau de la géographie de la France
(1903)، والذي ترجمه H. C. Brentnall إلى شخصية فرنسا (1928)
بول فيدال دي لا بلاش

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

قال الرئيس شارل ديغول ذات مرة إنه من المستحيل حكم بلد به 365 نوعًا مختلفًا من الجبن . ولو كان على قيد الحياة في ذلك الوقت ، لكان بول فيدال دي لا بلاش (1845-1918) قد رد **بأن هذا التنوع هو على وجه التحديد ما يوحد فرنسا** . وفي حين كان ديغول صريحًا بشأن التداعيات السياسية للتنوع الثقافي المتأصل في فرنسا ، فإن عمل فيدال الذي يصف هذا التنوع يمكن تفسيره أيضًا على أنه يحمل رسالة سياسية واضحة . فعمل فيدال - الذي زعم أن **التنوع البيئي** يخلق الظروف التي يتم فيها استيعاب طرق الحياة المحلية المتميزة في ثقافة فرنسية شاملة - قدم حجة قوية لصالح قدرة فرنسا على الحكم. إن مثل هذه الحجة كانت في الواقع مفيدة للغاية كأداة للقومية السياسية ، وفي هذا نرى انعطافًا آخر لتلك القضية التي أثيرت في مقدمة هذا الكتاب ، وهي **أن السياسي لا يبتعد أبدًا عن الثقافي** .

ونظرًا لأن فيدال معاصر لفريدريك راتزل ، فإن عمله يُقارَن غالبًا بنظيره الألماني ، وفي حين كان كلا العالمين مكرسين على قدم المساواة للاحتفال بأمجاد بلديهما من خلال دراساتهما ، إلا أنهما اختلفا إلى حد ما في كيفية فهمهما للعلاقة بين البشر وبيئتهم . يعكس عمل فيدال قدرًا أقل من الدين الفكري للتطور الداروينى ، وفي حين يرتبط إرث راتزل عادةً بالحتمية البيئية ، فقد ارتبط عمل فيدال بمفهوم الاحتمالية الغامض إلى حد ما . ويقصد بهذا المصطلح نقل اعتقاد فيدال **بأن البيئة الطبيعية تقدم مجموعة من الاحتمالات التي يمكن للمجتمعات الافادة منها** . كانت مهمة الجغرافي البشري ، بالنسبة لفيدال ، هي تفسير الأنواع المميزة من الحياة ("أنماط الحياة" أو "أنماط الوجود" التي تُرجمت في الاختيار أدناه إلى "أنماط الوجود") من حيث فهم الكيفية التي حولت بها المجتمعات بيئاتها استجابة لقيود تلك البيئات . في نهاية المطاف ، هناك في الواقع مسافة أقل تفصل بين فيدال و راتزل مما قد نفترض ، نظرًا لأن "الاحتمالية" و"الحتمية البيئية" عادة ما يتم مقارنتهما ببعضهما البعض .

لقد تعامل كل من العالمين مع الجغرافيا كونها علاقة ديناميكية بين البشر وبيئتهم . وقد فهم كل منهما **الثقافة** كونها المفتاح لقدرة البشرية على تجاوز القيود البيئية مع البقاء "متجذرة" في علاقة جسدية معينة . وقد سمح إيمان فيدال بديناميكية الثقافة له ، على وجه الخصوص ، بالدفاع عن الوحدة الوطنية لفرنسا على الرغم من التنوع الكبير في بيئاتها المادية . إن قدرة الثقافة على التغلب على هذا التنوع والاندماج في نطاقات أوسع من التعبير قدمت الأساس لتطور فرنسا كأمة موحدة ، بدلاً من أن تؤدي إلى مجموعة من المجتمعات المتميزة التي تعيش في ظل قيود بيئاتها الإقليمية .

كانت المساهمة الأكثر ديمومة لفيدال في الجغرافيا هي Tableau de la géographie de la France (1903) ، والتي تم اختيار الاتي منها . كان Tableau كتابه الخامس ، وسرعان ما أصبح نموذجًا للجغرافيا . لقد كان هذا الكتاب بمثابة **دراسة جغرافية إقليمية** ؛ وقد تمت دراسته في الجامعات في مختلف أنحاء العالم . والواقع أن فيدال يُنسب إليه الفضل في جعل "الكتاب الإقليمي" أحد أهم نصوص الجغرافيا

الثقافية ، وقد أثر هذا النموذج على النهج الذي تبناه كارل ساور في الولايات المتحدة . وبطبيعة الحال ، بحلول ستينيات القرن العشرين ، تعرض هذا النهج لانتقادات شديدة كونه وصفيًا للغاية وغير نظري وغير سياسي . وفي هذا السياق ، يجدر بنا أن نلاحظ ، مع ذلك ، أن كتاب Tableau قد كُتب كمجلد تمهيدي لمشروع أكبر كثيرًا : كتاب Histoire de France (تاريخ فرنسا) الذي ألفه إرنست لافيس والذي يتألف من سبعة وعشرين مجلدًا ، والذي غطى الفترة التي سبقت ثورة 1789. وعلى هذا فقد ركز كتاب Tableau على التاريخ الطبيعي لفرنسا والتنمية الاجتماعية والثقافية الطويلة الأجل ، بدلاً من التركيز على قضايا ـ مثل التصنيع والتحضر ـ في زمن فيدال نفسه .

وعلى الرغم من أن Tableau ركز على الموضوعات الريفية و"التقليدية" في أوصافها لأنواع الحياة المميزة في فرنسا ، فإنها غير سياسية على السطح فقط . فهناك بعد سياسي لا لبس فيه فيها ، وهو ما يتضح في الاختيار المقدم هنا . كان فيدال قوميًا صارخًا ، وسعى إلى إظهار الوحدة التي جعلت فرنسا أمة مميزة ذات تراث متجذر بعمق في تربة الأرض ذاتها . وكونها أنواعًا للحياة ، فإن "الثقافة" بالنسبة لفيدال **هي ما يفعله الناس بالموارد التي توفرها لهم بيئاتهم** . وكانت الثقافة نتيجة لنضال الناس من أجل "حياة جيدة" مما توفره لهم شريحة معينة من الأرض . عند وضع فيدال في سياق اجتماعي تاريخي معين حيث ظلت القيود البيئية مهمة في تحديد النقل والاتصالات وغيرها من أشكال الاتصال عبر الفضاء ، من المهم أن نلاحظ كيف أن وصف التباين في السمات الطبيعية لفرنسا يشكل محورًا أساسيًا لبناء فيدال لفرنسا الموحدة .

قام فيدال بالتدريس لمدة اثنين وعشرين عامًا ، بدءًا من عام 1877 ، في المدرسة العليا المرموقة في باريس ، ثم حصل على منصب رئيس قسم الجغرافيا في جامعة السوربون ، في عام 1898 . قام بتدريب جيل كامل من الجغرافيين الفرنسيين ، بما في ذلك جان برونز وإيمانويل دي مارتون (الذي حرر المجلد الذي نُشر بعد وفاته بعنوان مبادئ الجغرافيا البشرية ، 1921) . لقد رسخت أعمال فيدال ، وأعمال طلابه ، الدراسات الإقليمية ، أو علم الكورولوجيا ، كونها أحد أحجار الزاوية للمنهجية في الجغرافيا البشرية ، وهو الإرث الذي استمر بشكل ملحوظ في الولايات المتحدة من قبل كارل ساور وطلابه في جامعة كاليفورنيا في بيركلي .

يمكن العثور على أمثلة باللغة الإنجليزية للجغرافيا الإقليمية "الفيدالية" في أعمال بول كلافال (مقدمة إلى الجغرافيا الإقليمية ، 1998) وجان برونز (الجغرافيا البشرية ، 1952) . الدراسة الكلاسيكية باللغة الإنجليزية لفيدال وإرثه في الجغرافيا هي المجتمع والبيئة في التقليد الجغرافي الفرنسي (1971) آن بوتيمر، في حين تم وضع السياق الفكري الأوسع لعمل فيدال في الفرنسية الحديثة (1989) لبول رابينو . قدم كيفن آرتشر دراسة ثاقبة لارتباطات فيدال بالنموذج "اللاماركي" في العلوم الاجتماعية التطورية في القرن التاسع عشر ("المناطق ككائنات اجتماعية : الخصائص اللاماركية للجغرافيا الإقليمية لفيدال دي لا بلاش" ، حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين 83، 3، 1993) . ويمكن العثور على دراسة ثاقبة للتفكير الجغرافي المبكر لفيدال في كتاب هوارد أندروز "الحياة المبكرة لبول فيدال دي لا بلاش وصناعات الجغرافيا الحديثة" (معاملات معهد الجغرافيين البريطانيين ، العدد 11، 1986) . وأخيرًا ، يمكن العثور على سيرة ذاتية ممتازة باللغة الفرنسية لفيدال في كتاب سانجوين فيدال دي لا بلاش 1845-1918: عبقري الجغرافيا (1993). "ولكي تستجيب فرنسا لتنوع التأثيرات التي تحيط بحدودها وتتجاوزها ، فإنها تلجأ إلى قواها الاستيعابية ، فهي تحول ما تتلقاه . وتفقد الفوارق حدتها ، وتفقد الغزوات عنفها . ولابد أن هناك شيء في طبيعتها يزيل الزوايا ويخفف من الخطوط . ولكن أين يكمن سرها ؟ تنوع التربة والمناخ ؟

إن السمة الأساسية لفرنسا هي التنوع ، وأسباب هذا التنوع معقدة . وهي ترجع إلى حد كبير إلى التربة ؛ وهي تنبع بالتالي من سلسلة طويلة من التجارب الجيولوجية التي مرت بها تلك البلاد . وتحمل فرنسا علامات الاضطرابات في كل العصور . وهي تنتمي إلى إحدى تلك المناطق من العالم - وهي ليست شائعة كما يعتقد عمومًا - والتي أعيد تشكيلها مرارًا وتكرارًا ، ومع العديد من التعديلات اللاحقة ، بواسطة القوى الجوفية . وحتى تلك الأجزاء التي دخلت في حالة من الضرر منذ فترة طويلة لم تتعافى من آثارها . لقد فقدت آثار التشنجات التي تحملتها سابقًا . قد يؤدي التآكل المزمن إلى إضعاف الخطوط العريضة وتقليل الارتفاعات ، ولكنه أقل نجاحًا في إبادة الخصائص الأساسية للتربة . هناك منطقة في بريتاني ، حول تريجيه ، تدين بخصوبتها الغريبة للمواد التي تم إخراجها من بركان انقرض منذ العصر البدائي . ومع ذلك ، لم يكن هناك أي أثر لوجودها السابق لعصور مضت في شكل التضاريس . في الواقع ، ما تزال مراحل التاريخ الجيولوجي المعقد للغاية لفرنسا مسجلة بشكل شائع جدًا في تربتها .

<u>التنوع في جنوب فرنسا</u> ، يجب علينا أولاً وقبل كل شيء التمييز بين الجنوب الشرقي ، جنوب البحر الأبيض المتوسط ، والجنوب الغربي ، أو الجنوب الأطلسي . عندما نتحدث عن الجنوب ، أو منطقة ميدي ، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو المنطقة الأكثر تميزًا ، أو على حد تعبير السيدة سيفينييه ، المنطقة الأكثر إفراطًا . ولكن ما علينا إلا أن نسافر ثلاثين ميلاً إلى الغرب من ناربون ، حتى يختفي الزيتون ، ذلك الرفيق الذي لا ينفصل عن البحر الأبيض المتوسط . وبعد مسافة قصيرة ، تختفي أيضًا مزارع الكروم التي تغطي السهول اليوم . فتبدأ حقول القمح والذرة ، ثم تبدأ في التكتلات ، ثم الغابات الصغيرة من أشجار البلوط البريطانية ، في بناء مشهد طبيعي مختلف تمامًا .

كلما ابتعدنا عن البحر الأبيض المتوسط واقتربنا من تولوز ، ننتقل تدريجيًا من منطقة حيث الأمطار خفيفة ، والأكثر من ذلك ، أنها غير مقسمة بالتساوي إلى منطقة حيث الأمطار أكثر وفرة وأفضل توزيعًا ، وتصل ، في لانجدوك العليا ، وكيرسي ، وأجينيه ، وأرماجناك ، إلى ذروتها في الربيع . والانتقال تدريجي : فالزيادة في أمطار الصيف ، التي نادرًا ما تهطل على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، يمكن إدراكها بحلول الوقت الذي نصل فيه إلى كاركاسون ، وتصبح واضحة بين تلك المدينة وتولوز . وتدريجيًا أيضًا ، ولكن هذا في الداخل ، تتنفس الرياح ، التي يرتفع هديرها البري بصخب حول البحر الأبيض المتوسط ، سلالة أقل عنفًا . وبعد أن تلين بفعل المطر وتكتسحها رياح أكثر اعتدالًا ، تتحول التربة إلى طمية ذات لون بني أو أصفر فاتح .

الذرة ، التي تحتاج إلى أمطار الربيع ، تنافس القمح على الأرض . وبالتالي ، هناك على الأقل نوعان جنوبيان في جنوب فرنسا . وعلى طول البحر الأبيض المتوسط ، في روسيون ولانجدوك السفلى ، وعلى الحجر الجيري في بروفانس ، لدينا الصنف الأكثر وضوحًا ، وذلك في الأساس بسبب الانطباع الذي تركه الصيف على أوراق المناظر الطبيعية . عندما يتحمل الريف عدة أسابيع من الجفاف - ربما مائة يوم متواصلة بدرجة حرارة تزيد عن 68 درجة فهرنهايت ، وكل شيء مغطى بعباءة من الغبار ، فإن العقل يطارد في بعض الأحيان صورة الموت المرتبطة بالصيف في بعض أساطير العالم القديم والمكسيك .

لقد بحثت الرطوبة عن ملجأ في باطن الأرض ، حيث تحفر الجذور الطويلة للأشجار والشجيرات بحثًا عنها . تخفي الأنهار مياهها تحت فراش من الحصى . على سفوح التلال الصخرية لا يوجد أثر متبقي من ثروة وتنوع الزهور التي تتفتح في الربيع . لكن الأمطار الإعصارية التي يجلبها النصف الأخير من سبتمبر عادةً معها وضعت حدًا لهذه الأزمة من العام . في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، في شهري أكتوبر ونوفمبر أشهرًا ممطرة بشكل أساسي . مع مرور الصيف ، تظهر التناقضات الحادة في درجات الحرارة مرة

أخرى ، والتي يكون تأثيرها ، على الرغم من هذا خادعًا في بعض الأحيان ، منشطًا ومنعشًا بشكل عام ، و واحدًا من خصائص مناخ بروفانس .

التنوع في شمال فرنسا ، التنوع في الشمال كبير بالقدر نفسه ، ولكنه مختلف في النوع . فهو يتألف من ظلال دقيقة بدلاً من التناقضات الحادة ، ويمتزج في مخطط ألوان أكثر هدوءًا . في الشمال ، التضاريس أكثر تجانسًا . ومهما كانت معرفتهم بملامح المناظر الطبيعية الجنوبية قصيرة ، فإن قِلة من المسافرين لا يفشلون في تجربة شعور بالندم ، ومسحة من الحزن ، عندما تلتقي أعينهم بالخطوط المتواصلة والآفاق الذابلة التي تواجههم بمجرد عبور المرتفعات الوسطى .

التنوع بسبب التربة والجوانب المختلفة ، الآن تخيلوا داخل إطار الصورة لشمال فرنسا كل درجات الاختلاف التي يمكن أن تنتجها مناخات متغيرة وتنوعات كبيرة من التربة . فهنا ، أكثر من أي مكان آخر ، يحدث التغيير في أشكال الحياة من خلال الإضافات والحذف المتتاليين من خلال لمسات تضاف في لحظة لتُمحى في اللحظة التالية . يظهر الربيع في وادي الراين في وقت أبكر منه في بقية ألمانيا ، وفي إيل دو فرانس في وقت أبكر منه في وادي الراين . تتمتع لورين بالعديد من السمات المشتركة مع أوروبا الوسطى : فالأمطار الصيفية واضحة ، والأراضي الوعرة في لورين وبورجوندي مدينة لها بالحفاظ على غاباتها التي يصعب جدًا إعادتها إلى حالتها الأصلية بعد تدميرها .

إن الميزة التي تتمتع بها المنطقة الشرقية لموقعها القاري هي طول مدة الطقس الخريفي المشرق ، والذي يساعد على نضج الكرمة . تقع المنطقة الواقعة بين نهر الراين وباريس بالقرب من الحدود حيث تلتقي التأثيرات القارية والبحرية ، ولكنها ما تزال مفتوحة لتأثيرات الجنوب ، وتستمد من توازنها المناخي غير المستقر استجابة أكثر دقة لأدنى التغيرات في الارتفاع والمظهر والتربة . ومن ثم تأتي التغييرات الطفيفة في المناظر الطبيعية في تنوع لا نهاية له . نلاحظ ، على سبيل المثال ، الاختلافات بين المنحدرات التي تتسلقها الرياح الغربية الممطرة وتلك التي عبر مستجمعات المياه .

ذكّرت منحدرات الحجر الجيري في مايه ، بألوانها الزاهية وأكوامها المتفتتة من الحجارة السائبة المكسوة بنباتات منحوتة بدقة من المتسلقات واللبلاب ، لامارتين بصور اليونان . في الواقع ، بين بريس ذات المياه وهضاب أوكوا الكئيبة ، تتمتع خطوط التلال الممتدة شرقًا بنوعية مضيئة لن نجدها مرة أخرى في رحلتنا شمالًا . مستفيدة من المنحدرات المواجهة باستمرار في الاتجاه نفسه ، تمتد أشجار الكستناء وحتى اللوز إلى طيات وديان الألزاس . تتجوف الأجنحة الشرقية لتلال لورين على شكل أمشاط ، حيث يعمل الضوء المنعكس والدفء على نضج الكروم . بالقرب من ميتز، تؤوي هذه بساتين حقيقية . تمتد المحاصيل الغنية التي تحب الشمس ، الكروم وأشجار الفاكهة والجوز ، إلى سفوح آردين ، التي تحميها من الرياح الشمالية ؛ ومعها نباتات ، تبشر بثروة وأناقة أشكالها ، بقدوم الجنوب أو تذكرنا به حتى الآن .

يخبرنا جغرافيو النبات أن التربة ، من بين العوامل الرئيسية التي تحكم الغطاء النباتي ـ الماء والحرارة والتربة ـ تكتسب أهميتها الكبرى في المناخات الانتقالية . وتنطبق هذه الملاحظة بقوة خاصة على شمال فرنس . فكل من يعبر البلاد من الشرق إلى الغرب ، لنقل من ميتز إلى ريمس ، أو من نانسي إلى باريس ، سرعان ما يرى نوعًا جديدًا من المناظر الطبيعية يحل محل الهضاب والتلال الجيرية في بورسيان وأرجون وبيرثوا وفالاج . وفي الوقت الحالي تختفي الكرمة . والعدد المتزايد من الأشجار ، التي تتجمع أحيانًا في الغابات ، وتنتشر أحيانًا أخرى على طول سياج الشجيرات أو في الحقول والمراعي ؛ وارتباط المكنسة والبتولا والخلنج بالأماكن المهجورة ؛ والبرك والأرض الموحلة التي يعلن محيطها مسارات مشي موحلة لا يمكن عبورها أبدًا .

إن كل شيء يبدو وكأنه يشير إلى تغير في المناخ ، ولكن لم يحدث أي تغير. والسبب الوحيد وراء هذا التغير هو ظهور خط ضيق ولكنه طويل من الطين يمتد من الواز إلى اللوار، ومن تيراش إلى بويساي ، والذي ما يزال بوسعنا أن نتتبع فوقه أحد أعظم أحزمة الغابات في فرنسا في وقت سابق . ونحن نعلم أن شمال فرنسا يحتوي على سلسلة من الطبقات المختلفة مرتبة بشكل مركزي حول إيل دو فرانس . وبالتالي ، عندما يتجه المرء نحو باريس من الشرق ، تتغير طبيعة التربة في كل خطوة تقريبًا . وهذا الترتيب يناسب المناظر الطبيعية التي توحي في وقت ما بالشمال ، وفي وقت آخر بالجنوب . وتغفل العين وتستعيد بالتناوب الخصائص التي اعتادت أن تربطها بكل منها ، ولن تتوقف هذه التناوبات إلا مع تزايد وضوح قرب القنال الإنجليزي وبحر الشمال .

ثم إن تكرار حدوث الغيوم والأيام الممطرة وانخفاض درجات الحرارة في الصيف بشكل ملحوظ ، إلى جانب وصول أمطار الخريف في وقت مبكر، ينتج بدوره تأثيرًا ملحوظًا على وجه الطبيعة . فالكرمة ، التي تغلبت عليها أمطار سبتمبر قبل الأوان ، تتركنا أخيرًا غرب باريس ، وتحل محلها شجرة التفاح . أما شجرة الزان ، التي فضلت في الشرق الجبال والتلال ، فتقترب من السهول . وهي ما تزال تبدو مريضة بعض الشيء في فونتينبلو ، وأكثر قوة في سان جوبان ، وتصبح الشجرة المهيمنة على جذوع وديان نورماندي . وتزدهر هناك ، كما هو الحال على شواطئ الخلجان الدنماركية ، أو فوردن ، في الجو الضبابي الذي تحب شجرة رويسديل أن تظهر من خلاله جذعها الأبيض اللامع . ولكن بيكاردي وجزء من نورماندي يتألفان من هضاب من الطمي ، تتشكل على تربة نفاذة تستنزف سطحها بفعالية . وتعمل التربة بشكل ما بسبب جفافها على تخفيف آثار المناخ . وتشكل المراعي والمروج القاعدة في التربة الطينية في منطقة أوج في نورماندي ، ولكنها تشكل استثناءً في هذه الهضاب ، حيث يجد القمح ، الذي تنقذه جذوره العميقة من الحاجة إلى الترطيب المستمر، نفسه في أرض الميعاد .

بين النوعين اللذين يمثلهما شمال فرنسا ، تلعب إيل دو فرانس الدور الوسيط الذي تفترضه في كل علاقة تقريبً . تذبل الطبيعة على السهول المتدحرجة في بيري وشامبين ، ولكنها تستعيد حيويتها مرة أخرى في إيل دو فرانس وتحمي الرمال الصوانية في فونتينبلو في محيطها من المياه الجارية نباتات المناخ الدافئ وحيوانات تشمل بعضًا من الأنواع الجنوبية بالكامل "إن الأشكال التي وجدت ملجأ لها في هذه الواحة ، وتحيط تجاويف الوديان العميقة ببساتين التين . وفي مثل هذه السمات ، قد تذكرنا إيل دو فرانس بالجنوب. ولكنها تمتلك أيضًا غاباتها الرطبة ، وفوق كل شيء هضابها الزراعية الشاسعة الممتدة من باريس إلى بيكاردي وفيكسين .

إن ما يلفت انتباه المرء أولاً وقبل كل شيء في المظهر العام للبلاد هو الاختلافات الواسعة النطاق . فعلى سطح يمثل جزءًا واحدًا من ثمانية عشر جزءًا فقط من أوروبا ، نرى مناطق مثل فلاندرز أو نورماندي من ناحية ، وبيارن أو روسيون أو بروفانس من ناحية أخرى – مناطق ترتبط بألمانيا السفلى وإنجلترا ، أو بأستورياس واليونان . ولا يوجد بلد آخر من الامتداد نفسه يضم مثل هذه التنوعات . كيف إذن لم تعمل هذه التفاوتات على إنتاج حركات طرد مركزي ؟ لم يكن المهاجرون غائبين على شواطئ فرنسا ، سواء من السكسونيين أو الإسكندنافيين أو غيرهم ؛ ومع ذلك لم نجد قط أن هذه المجموعات نجحت ، حتى لو حاولت ، في تكوين مجموعات سكانية معزولة ، تدير ظهورها للداخل ، كما فعلت بعض القبائل البحرية في ألمانيا السفلى ، مثل الفريزيين أو الباتافيين .

<u>الروابط بين الشمال والجنوب</u> ، يكمن السبب في حقيقة مفادها أن الطبيعة بين هذين القطبين المتقابلين لفرنسا تعرض ثروة من النغمات التي لا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر . فإذا برز الشمال والجنوب بشكل واضح ، فهناك سلسلة كاملة من الظلال الوسيطة بينهما . وتتدخل الأسباب المناخية والجيولوجية

والطوبوغرافية باستمرار في لحام الجنوب والشمال معًا حتى تضيع هويتهما ؛ ومع ذلك ، تظهران مرة أخرى على الفور. إن فرنسا تحتل مكانة خاصة فيما يتعلق بالتأثيرات القارية والمحيطية التي تخوض حربًا غير حاسمة داخل حدودها ، بحيث تجد النباتات والمحاصيل من جانب أو آخر مجالًا للانتشار والافادة من ألف فرصة و واحدة تتيحها التضاريس والتربة المتغيرة . ويتجلى امتزاج الشمال والجنوب بشكل أكثر وضوحًا في بعض المناطق الانتقالية مثل بورغوندي وتورين ، والتي تمثل ، على حد تعبير ميشليه ، "عنصر الترابط في فرنسا" . ولكن في الحقيقة ، يمكن تسمية هذا المزيج بفرنسا ذاتها . يشير الانطباع العام إلى وسيلة تذوب فيها جميع الألوان المتنافرة في سلسلة من الظلال المتدرجة "طرق العيش . - ومن هنا التنوع الكبير في المنتجات التي تصلح لها تربة فرنسا ، وهو التنوع الذي يعمل كحماية للسكان ، حيث يمكنهم من مواجهة فشل محصول ما بنجاح محصول آخر في العام نفسه .

كتب أحد القناصل الإنجليز مؤخرًا : ""إن الميزة العظيمة التي يتمتع بها المزارع المستأجر الصغير أو المالك الصغير في فرنسا تكمن في اختلافات المناخ ، التي تؤيد نمو العديد من المنتجات الصغيرة التي لا تنجح في بلدنا ."" هذه المنتجات الصغيرة هي التي تجعل من الممكن تحقيق المثل الأعلى الذي اعتز به سكان فرنسا القديمة منذ فترة طويلة ، والذي ما يزال متجذرًا بقوة هنا وهناك ، وهو **امتلاك جميع ضروريات الحياة و وسائل الراحة تحت تصرفهم والحصول عليها جميعًا عند بابهم** . لا شك أن مثل هذه الرغبة قد استحضرتها "الأراضي المباركة" التي توجد على كل جانب ، والتي لا يعد من المبالغة أن نحلم بحياة الوفرة التي تكفي نفسها إلى حد كبير .

وإذا طبقنا المفهوم على نطاق أوسع ، فسوف نجد أنه يتوافق بشكل وثيق مع ما يعتقده الفرنسي العادي عن فرنسا . إنها وفرة "الأشياء الطيبة على الأرض" ، إذا تبنينا العبارة العزيزة على قلوب كبار السن ، والتي يربطونها بالاسم . فألمانيا بالنسبة للألماني هي في المقام الأول مفهوم عرقي . **وما يقدره الفرنسيون في فرنسا بشكل رئيسي** ، كما يثبت ذلك ندمهم عندما يغادر شواطئها ، هو جودة التربة ومتعة العيش هناك . فهي بالنسبة له بلد البلدان ، أي شيء مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمثاله الغريزي للحياة . ومع ذلك ، هناك مناطق سيئة في فرنسا بالإضافة إلى المناطق الجيدة . هناك بعض الأراضي التي زينها الإنسان بأوصاف مجاملة ، والتي كانت تُقارَن ، في السابق ، على الأقل ، في العقل والخطاب الشعبي ، بأراضي أقل حظًا ، وأُجبِرت على استبدال صفوف الكفاف والقمح والنبيذ وما إلى ذلك ، بوسائل بائسة . **يحتقر المزارع في المناطق الجيدة الأرض التي لا تطعم اهلها .**

كانت نغمة من الشفقة ممزوجة بالسخرية ترحب بالسكان على تربة غير خصبة مخصصة لزراعة الحنطة السوداء أو الكستناء ، أو في المناطق غير القادرة على تلبية احتياجاتها الخاصة والمضطرة إلى الحصول عليها من جيرانها . اعتاد سكان فوج الفقراء إثارة هذا الشعور عندما زاروا جيرانهم الأغنياء في التيه بحثًا عن البوتاس لتخصيب تربة الحجر الرملي المدهونة ، حيث تنمو الأشجار بحرية أكثر من القمح . عندما يرغب رابليه في مكان ما في "وعندما يصف بؤس بانورج ، فإنه لا يجد تعبيراً عن هدفه أكثر من عرضه لنا "في مثل هذه المعدات الرديئة التي تبدو وكأنها جامع تفاح من بلد بيرش" . وفي جميع المناطق ، المفضلة وغير المفضلة على حد سواء ، فإن الوفرة والازدهار يوقظان الرغبات والأفكار نفسها . والعلامة الرئيسية للرفاهية هي وفرة الكتان ، وهي سمة أقل وضوحاً في البلدان المجاورة .

بين الأغلبية الساحقة من المناطق الريفية في فرنسا ، لا يوجد فرق كبير في الطعام المستهلك ، أو حتى في طهيه ، على الرغم من بعض اللمسات التي تشكل موضوعاً للجدال بين الشمال والجنوب . قد تجد فلاح الشمبانيا الذي يصوره تالوس وهو يأكل حساءه على باب منزله في موقف مماثل يستخدم على نحو مماثل في أي مكان في فرنسا . عندما نرى في صور هؤلاء الرسامين النادرين ، مثل لينين ، الذين لم يترددوا

في رسم الفلاحين ، موقف وملامح الفلاحين في القرن السابع عشر، فإننا ندرك أنهم من نسلهم في الوقت الحاضر . إنهم يتمتعون بالإيماءات البطيئة نفسها لأولئك الرجال ، الذين طعامهم الخبز، يجلسون بثقل على مقاعدهم الخشبية حول رغيف خبز مقتصد ، ويرتشفون من حين لآخر نبيذهم مثل الرجال الذين يعرفون قيمته

الخبز، والخضروات من مختلف الأنواع ، واللحوم التي تساهم الدواجن والبذور بنصيب أكبر هذا هو الطعام الذي يجب أن نتوقعه في تربة مخصصة بشكل أساسي للحبوب ونوع المخزون الذي يعتمد عليها . القمح هو عصا الحياة في جنوب أوروبا ، ويصادف أن أراضي القمح الرئيسية في فرنسا تقع في الشمال . إن التجانس في الطعام بين شمال فرنسا وجنوبها واضح مثل الاختلاف في هذا الصدد بين الفرنسيين والإنجليز أو حتى الألمان . إن تقدير الفلاح الفرنسي للخبز الأبيض وحبه للخضروات وبراعته في زراعتها ، يثير اهتمام وفضول الشعوب التوتونية المجاورة .

في روايته للحملة الفرنسية ، لاحظ جوته العداء بين الشعبين بشأن مسألة الخبز: "الخبز الأبيض والخبز الأسود هما الشعاران ، والصيحات الحاشدة التي تميز الفرنسيين عن الألمان" . والصيادون البريتونيون ، وهم جميعًا من البستانيين ، على ساحلهم المعتدل الرطب ، يدهشون الطواقم الإنجليزية في نيوفاوندلاند عندما يخططون لزراعة بعض النباتات للسلطة على ذلك الساحل القاحل . وفي القرن السابع عشر، حول اللاجئون الفرنسيون الموابيت الكئيبة في الضواحي الرملية لبرلين بقطع أراضيهم المزروعة بالخضروات والحدائق .

لقد غلف **جو شامل** ، يغرس طرقًا للشعور، وأساليب التعبير، وحيل الكلام ، ونوعًا خاصًا من التواصل الاجتماعي ، السكان المختلفين الذين جمعهم القدر على أرض فرنسا . ولم يفعل أي شيء أكثر من ذلك لجذب العناصر المختلفة إلى عنصر واحد . "إن هناك دائمًا مرارة معينة في اتصال الرجال من أعراق مختلفة . لم يغفر السلتيون أبدًا للأنجلوسكسونيين ، ولا الألمان للسلاف . إن هذه العداوات التي ولدت من الكبرياء ، تثيرها وتتفاقم بسبب التجاور . ولكن في فرنسا لا يوجد شيء من هذا القبيل .

كيف يمكن للناس أن يقاوموا قوة لا يعرفوها ، والتي تستولي عليهم دون أن يشتبهوا في ذلك - قوة تنبع من عاداتهم العميقة الجذور وتقربهم في ارتباط وثيق ؟ عاجلاً أو آجلاً ، وقع الجميع بدورهم على العهد . هناك إذن قوة خيرة ، مكان عبقري ، جعلت الوجود الوطني ممكنًا لفرنسا ، والتي تمنحها عنصرًا من السلامة - شيء غير قابل للتعريف يرتفع أعلى من الاختلافات الإقليمية . إنها توازنها وتجمعها في كل واحد ؛ ومع ذلك ، فإن الاختلافات ما تزال قائمة ؛ ما يزال يتعين علينا أن نأخذها في الحسبان ، ودراستها هي المقابل الضروري لدراسة العلاقات الأكثر عالمية التي انخرطنا فيها .